الافتتاحية

برفقة العالم الجليل الشيخ عبدالقدوس الأنصاري زرت الصويدرة في زيارته الثانية لها عام ١٣٨٧هـ الموافق ١٩٦٨م، وكان قد مر على عودتي من بريطانيا (جامعة ليدز) سنتان، ودهشت لِما رأيت، وتحدثت لتلاميذي آنذاك بما شاهدت، وبخاصة رسم الأسد الذي لم أر مثله قط، وقد قرأت للعلامة الشيخ عبدالقدوس الأنصاري بعض الكتابات القديمة.

تذكرت تلك الرحلة، يوم أن تفضل الزميل الكريم الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد بإهدائي نسخة من كتابه، بل موسوعته عن الصويدرة، والتي حفلت بصور وخرائط، ودراسة متميزة للنصوص الإسلامية التي يزيد عددها على مائتين وخمسين نصاً. والدكتور سعد لا يكتفي بتاريخ أولي للنص، يتأرجح عادة بين القرنين الأول والثاني أو الثاني والثالث، ولكنه يغوص باحثًا عن صاحب النص عله يتعرف عليه؛ نسبًا ومنزلة وعلماً وأهمية وعلاقته بالطريق. ولم يفته أن يتحدث حديثاً مقتضباً عن فترة ما قبل التاريخ، وأن يدفع بالنصوص القديمة إلى الأستاذ الدكتور سليمان بن عبدالرحمن الذييب لقراءتها ودراستها. وكنت أتمنى لو خدم الدكتور الذييب هذه النصوص خدمة الدكتور سعد للنصوص الإسلامية؛ لذا، جاءت القراءة ليست على مستوى أعماله المعهودة.

وسوف أقدم هذا الكتاب القيّم إلى قراء أدوماتو في عدد قادم، إن شاء الله. وإنني أتمنى على الأستاذ القدير الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد أن يلتفت إلى نصوص إسلامية في مناطق شمال غربي المملكة، وأن يجمع هو وزملاؤه كل ما عثروا عليه من نصوص إسلامية، مع محاولة للتأريخ الدقيق للحرف العربي؛ منذ نشأته وحتى بداية العصر العثماني، ثم يصدرون بذلك موسوعة علمية في موضوعها، يفاخر بها كل من شارك فيها وكل من يستفيد منها.

***

عندما زرت عكاظ قبل سنتين للاطلاع على آثاره، رأينا أكثر من كهف، تبيّن لي من فحصها الأَوّلـيِّ أنها لا بد أن تحتوي على بقايا إنسان الطائف، كما شاهدنا رسوماً وحروفاً، ما يدل على نشاط بشري مورس في تلك الكهوف. وكنت فَرِحاً بذلك الكشف، وشجعت من كانوا معنا من الهيئة العامة للسياحة والآثار، ومن كلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود على ضرورة فحصها آثارياً والتنقيب فيها. ولا أدري بعدئذٍ، ماذا حصل لتلك الكهوف.

كما أننا اكتشفنا في خيبر سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م كهفاً ضخماً، يقع في الحرّة، إلى الشرق من خيبر، يسميه الناس «أم جرسان». وسألنا عن سبب تسميته بهذا الاسم، فقيل لنا: لأنه مليء بالحيات ذات الأجراس.

وفي دعوة كريمة من الشيخ عبدالله باحمدان والشيخ عبدالله بقشان والمسؤول عن الرحلة الدكتور عمر بامحسون زرنا حضرموت، بصحبة بعض رواد خميسية الشيخ حمد الجاسر يرحمه الله، في طائرة خاصة، تجولنا خلالها في مدن التراث الحضرمي.

وكان برنامج زيارتنا يتضمن السفر إلى جزيرة سقطرى، وهي غاية ما كنت أتمناه، وفيها رأيت شجرة «دم الأخوين»، وهي شجرة من أجمل ما خلق الله من الأشجار. وما أجمل شطآن سقطرى! إنها تضاهي أجمل شطآن العالم؛ صفاء، ونقاء، وتنوع ألوان، وكثبان رملية بيضاء، وطيور أليفة تروح وتغدو بين الناس. أمضينا يومًا كاملاً، وقبل المغادرة أطلعنا على كهف ضخم ذي عمق يتناسب مع ضخامته. أما ماذا بداخله، فلم يتيسر لنا معرفة ذلك.

على أي حال، ثمة معلومات وفيرة بعثها لي الزميل الكريم الأستاذ الدكتور سعيد باسماعيل - وهو العالم الجليل، الذي يمدني بين آونة وأخرى بمعلومات شتى - بعث لي بما أصدرته هيئة المساحة الجيولوجية السعودية عن أكبر كهف في الوطن العربي، وهو كهف «أم جرسان»، الذي يبلغ طوله (١٥٠٠ متر) ألف وخمسمائة متر، ويحتوي في داخله على موجودات أثرية من جماجم بشرية، وعظام محنطة طبيعيًا نتيجة وجودها داخل الأجواء الطبيعية في الكهف، ومن بين الآثار الموجودة داخل

الكهف - الذي يبلغ أقصى ارتفاع فيه (١٢م) أثني عشر متراً وعرضه (٤٥ م) خمسة وأربعين مترًا - أوان منزلية مصنّعة من الحجارة.

وكان أكبر كهف تم اكتشافه في الوطن العربي قبل «أم جرسان»، كهف حرة الشام، الموجود شمال شرقي الأردن، ويبلغ طوله (٩٢٢ مترًا). ويقول الدكتور زهير نواب رئيس هيئة المساحة الجيولوجية السعودية: إن عيّنات من الآثار التي تم اكتشافها داخل الكهف، قد تم إرسالها إلى معامل متخصصة في بولندا لتحليلها وتحديد أعمارها وأنواعها.

إذاً، نحن أمام متاحف عالمية، تجمع بين سياحة الكهوف وآثار الإنسان، منذ أن عاش في الكهوف حتى عصر الكتابة، وما بعد ذلك. وهنا، لا أشك أن صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار سوف يضم تلك الكهوف في المملكة العربية السعودية إلى السياحة المرئية الواقعية، في بيئات متنوعة تطورت فيها حركة الإنسان من المغارة إلى العمارة .

بخ .. بخ يا مملكتنا الحبيبة منحك الله من كل شيء: كتاباً فيه ذكرنا نهتدي به، وقادةً منا، يحبوننا ونحبهم، يقيمون حكمهم على الحق والعدل، ورزقاً وافراً، وأمناً يظلل حياتنا، وتراثاً يدفعنا إلى الأمام؛ لنضيف إليه أفضل مما قدم الأجداد.

رئيس هيئة التحرير